متحمس . . . !

يتحمس فى كل شىء : فى رأيه ، فى نطقه ، فى عبارته ، فى جلسته ، فى حركته ، فيما يختار من ألوان ملبسه ، فى ضحكته ؛ ولا بد أنه قياساً على كل هذا متحمس كذلك فى بكائه . وكم تمنيت — على شدة كراهيتى للبكاء — لو رأيته يبكى لأرى مبلغ حماسته فى دمعته !

قارب الثلاثين أو جاوزها قليلاً . حديث العهد بشهادة من شهادات إحدى جامعتينا فهو بها معتز مغتبط متحمس فى اعتزازه واغتباطه : ولست أجد فى ذلك مايلام عليه فهذا ما يفعله كثيرون غيره ممن يظفرون بشهادات جامعية يستطيعون بعدها أن يعملوا ليظفروا بالألقاب العلمية الضخمة ، ومن منهم لا يحب أن يصبح دكتوراً مرموق المكانة عظيم الخطر ؟

وصاحبنا الذى اختلس منظارى النظر إليه ساعة ، وحلقت فيه عيناى أكثر من مرة من شدة إعجابى به ، ولست أقول من فرط تعجبى منه ، قد عقد النية فيما علمت من أنبائه على أن يكون دكتوراً مهما كلفه ذلك من جهد . على أننى لا أذكر أنى رأيت فيمن يحملون هذا اللقب العظيم من هو أشد ذهاباً بنفسه من صاحبنا هذا ، ولا من يصطنع لهجة الأستاذية والضلاعة ، ولا من يقطع بالرأى فى سرعة ويقين ، ولا من يقذف بالأحكام العريضة فى سخاء ويسر ، كما يفعل هذا الذى لم يصبح دكتوراً بعد ، وهذا هو سر إعجابى به ، فما أحسب إلا أنه غنى بذلك كل الغنى عن جميع الألقاب

كل وصف عنده ، سواء وصف مايرضيه أو وصف مايسخطه ، يأتى على وزن أفعل كما يقول النحاة ، فهذا أحسن مؤلف ظهر حتى اليوم ، وفلان أكبر عالم فى البلد ، وهذا أجهل رجل بكيت وكيت من المسائل ، وهذه أحسن خطة ؛ وهكذا دائماً على وزن أفعل النحاة ، أو على طريقة أفعل التجار فى مثل قولهم أحسن صنف وأنفع قماش وأجل لون وأرخص سعر !

وهو على أهبة دائماً لأن يعارضك فيما تبدى من رأى . وليته يقارعك حجة بحجة ، أو يعنى حتى بمجرد الاستماع إلى أن تتم رأيك ، فإنك ما تكاد تشير إلى فكرة حتى تراه ينهال عليك بما حفظ من مسائل ، فيورد طائفة مختلفة من الآراء وليس يهمه إن كانت تتصل من قريب أو من بعيد بما يدور الكلام حوله ، وإنما يكفيه أنه هكذا قرأها ، وإنه ليوردها أحياناً مبتورة مشوهة فيقحمها عليك إقحاماً ، فإن غيرت مجرى الحديث لتصحح له نصوصه عاد وأصر على أن الصحيح ما يقول ، فلا مناص إذاً من أن تجد نفسك وإياه وقد خضتما فى حديث جديد لتنتقلا منه بنفس الطريقة إلى غيره ثم إلى غيره ، وحينئذ ينظر إليك نظرة الظافر ، ويبتسم ابتسامة من يرثى لضيق عقلك وقلة اطلاعك ، وإنه لأهون عليك ألف مرة أن ترضى بذلك من أن تسايره فى جدله

وإنه ليلتفت إلى متحاورين فى المجلس فما أسرع ما يجعل من نفسه خصماً ثالثاً وما سأله أحد رأيه . وإنه ليسفه كلا الرأيين المتجادلين ، فما تدرى ماذا يريد ، ثم يهجم هجومه على أسلوبه المعتاد ، فهذا الرأى أضعف ما قيل فى هذه المسألة ، وذلك أبعد ما يكون عن الحقيقة ، وقول فلان هذا يرفضه أبسط متعلم ، ولا يجوز عند أقل الناس إلماماً وأضعفهم إدراكاً ، وإن الرأى الصحيح بل أدق الآراء وأحذقها هو ما ذكره العلامة فلان والفيلسوف علان فى كيت وكيت من الكتب . وإنه ليرتعش من جميع نواحيه وتهتز أطرافه من فرط تحمسه ، وتتعاقب الصفرة والحمرة على محياه الكريم ، بحيث لو دخل زائر فى هذه الحالة لما شك أنها معركة تبودلت فيها أقذع التهم وأفحش المطاعن

وإنك لتقرأ فى وجهه العجب والغضب من أنك تطاوله ، فضلاً عن أن تنكر عليه ما يقول ، فهل قرأت مثل ما قرأ أو بعضه ؟ وكيف لا تؤمن بطول باعه ورسوخ قدمه ، وإنك لتراه يتناول كل معضلة ويجادل فى كل فن ولا تغرب عن ذهنه صغيرة ولا كبيرة من المسائل ، فإن تكلم فى المجلس اقتصادى انبرى له ، وإن تحدث لغوى وثب عليه ، وإن جادل سياسى أخذه من أقطاره ، وإن شرح طبيب سبب علة أبان له وجه الخطأ فيما يقول ، وإن أرخ مؤرخ لحادث شهده بنفسه أو روى حديثاً عن عظيم طواه الموت جابهه بما يشبه التكذيب لأنه لا يمكن أن يعتقد وقوع ذلك فإنه أبعد ما يكون عن العقل وأضعف سنداً من أن يعتمد عليه

وبعد فما كانت الحماسة عيباً ، وإننا معشر المصريين لمن أكثر بنى الدنيا تحمساً فى معظم الأمور ، وإنما هو هذا المنظار اللعين يأبى إلا أن يستخرج من هذه الحماسة الشائعة ما يسوقه مساق التندر والمعابثة ، وهذه صورة منها سوف تعقبها صور

المنصف